مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

سيرورة التشكل اللغوي بين المعرفة اللغوية وغير اللغوية

الدكتور زين العابدين سليمان
مركز المولى إسماعيل للدراسات والأبحاث
في اللغة والآداب والفنون/ المملكة المغربية

ملخص البحث:

باعتبار اللغة أداة توصيل ومعرفة وظاهرة تخضع للتجارب وللتحليل العلمي كباقي العلوم الأخرى، فإنه يمكن دراسة صيغها وتعابيرها وتحليل تراكيبها، وقد حاولنا في هذا المقال البحث في سيرورة التشكل اللغوي عبر المعرفة اللغوية وغير اللغوية ومن خلال الإحاطة بالسلوك الإنساني، باعتباره المادة الخام التي يتم تحليلها لسانيا حسب نظريات متعددة، فقاربنا في البداية ظاهرة التشكل اللغوي، وتوقفنا على أهم المراحل التي تسهم في هذا التشكل، وكذا العوامل المؤثرة فيه، وختمنا البحث بسيرورة هذا التشكل من المعرفة اللغوية إلى المعرفة غير اللغوية، وقد تم ذلك وفق الخطة الآتية:

ظاهرة التشكل اللغوي.

مراحل التشكل اللغوي والعوامل المؤثرة فيه.

من المعرفة اللغوية إلى المعرفة غير اللغوية.

الكلمات المفاتيح: التشكل اللغوي؛ الظاهرة اللغوية؛ المعرفة اللغوية؛ سيرورة التشكل.

Abstract:

Language is considered as a tool of communication, knowledge, and a phenomenon that is subjected to experiments and scientific analysis as other sciences; therefore, it is possible to study its formulas and expressions, and analyse its structures. This research paper explores the process of linguistic morphology through linguistic and non-linguistic knowledge and by taking human behaviour into account since human is regarded as the raw material that is analysed linguistically according to multiple theories.

The research study approaches the linguistic morphology phenomenon, and covers the most important stages that contribute to this formation, as well as the factors affecting it. Finally, it studies the process of this formation from linguistic knowledge to non-linguistic knowledge. This papers covers the topic according to the following outline:

1- The linguistic morphology phenomenon.

2 - The stages of linguistic formation and the factors affecting it.

1- From linguistic knowledge to non-linguistic knowledge.

Key Words: *The linguistic phenomenon؛ linguistic morphology؛ stages of linguistic.*

تقديم

تعتبر اللغة جوهر الدراسة العلمية إذ منها تنطلق جل النظريات والدراسات، ودراسة اللغة نفسها باعتبارها ظاهرة لغوية يقول سامي أدهم تتطلب ثلاث مستويات: الأول كونها ظاهرة خارجية موضوعية تخضع للدراسة العلمية كباقي الظواهر الفيزيائية الطبيعية، حيث تخضع للتجارب وللتحليل العلمي، ويمكن دراسة صيغها وتعابيرها وتحليل تراكيبها وعلاقاتها بعلم النفس والعلوم الأخرى، والثاني كونها أداة توصيل ومعرفة، وأخيرا كونها تكون الشعور الفردي ذاته، فالشعور يصبح عدما بدون لغة رمزية، وهذه المستويات متشابكة لا يمكن فصل الواحد منها عن الآخر، واللغة ليست ظاهرة كباقي الظواهر تحس وتلمس وتؤثر في الحواس فقط، أي كظاهرة حيادية تتظاهر بالاستقلال عن الإنسان وتنتمي للطبيعة، بل هي ظاهرة من نوع خاص وتأثيرها خاص.

لاشك أن البحث في ظاهرة التشكل اللغوي يبدو منطلقا جيدا لكل الدراسات التي تتوخى الإحاطة بالسلوك الإنساني، باعتباره المادة الخام التي يتم تحليلها لسانيا حسب نظريات متعددة، لهذا فحياة كل فرد تعرف مراحل عدة منذ ولادته حتى وفاته، ونلاحظ ذلك في التغيرات والنمو المطرد في مختلف النواحي الجسمية والنفسية والاجتماعية، وتكون هذه المراحل وحدة واحدة، وتنبعث عملية النمو هذه من الداخل وليس من الخارج.

إن تشكل اللغة ونموها يستند على مدى نضج الأجهزة الصوتية وتدريبها بحيث ينعكس ذلك على سرعة الطفل المعرفية أو بطئها، كما أن التعرف والفهم للعلاقة القائمة بين التشكل اللغوي والعوامل التي تؤثر فيه يتيح إمكانية التعرف أكثر مما عرفناه على هذا التشكل تقويما وضبطا، بل إن التعرف علة هذه العوامل يجعلنا أمام معرفة الأسباب الكامنة وراء اختلاف التشكل اللغوي بين الأفراد بعضهم ببعض أو بين جماعات مختلفة. من كل ماسبق ارتأينا في هذه الورقة البحثية مقاربة التشكل اللغوي وسيرورته عبر المحاور الآتية:

1- ظاهرة التشكل اللغوي.

2- مراحل التشكل اللغوي والعوامل المؤثرة فيه.

3- من المعرفة اللغوية إلى المعرفة غير اللغوية.

1- ظاهرة التشكل اللغوي

يعد موضوع ظاهرة التشكل اللغوي من المواضيع الهامة التي شغلت بال الباحثين من علماء الطب وعلماء النفس وعلماء اللغة، وقد أكد هؤلاء جميعاً على أهمية تشكل اللغة والكلام في القدرة على الاتصال والتوافق، والنمو المعرفي اللغوي وغير اللغوي معا، وهذا ما جعل مفهوم التشكل اللغوي مفهوما واسعا يتطلب تظافر كل الجوانب الصوتية، والتركيبية والدلالية، والصرفية، وتضام كل هذه المعطيات اللغوية مع نظيرتها غير اللغوية هو ما يسهم في تشكل اللغة لدى الفرد، فالطفل يبدأ بتعلُم اللغة وتشكلها منذ الأيام الأولى من طفولته، ولكن في واقع الأمر لا تتشكل لديه بالصورة المألوفة، وإنما يستعد لتشكلها، حيث يرتبط هذا التشكل بالمجتمع والسلوك الإنساني، فالطفل في تلك المرحلة يحاول التواصل مع الآخرين خاصة الأم بشتى الوسائل.

إن تشكل اللغة في مكان ما يعني تواجدها وتركيبها وتبادلها والتفاهم بها، ويمثل ركيزة أساسية لطفل مؤهل طبيعيا بملكة تمكنه من ذلك في عامه الأول، ويتمكن من التعرف على الصوت اللغوي Phonèmesللغته، كما يستطيع فهم العديد من الكلمات، وتتراوح الكلمات التي يستطيع الطفل تشكلها وإنتاجها خلال عامه الأول ما بين 5 إلى 10 كلمات، أما تشكل التراكيب النحوية لديه فيمكن ملاحظتها في الشهر الثامن عشر، حيث يتمكن الطفل في حدود السنة الثالثة من تشكل وإنتاج بعض الجمل النحوية المفهومة، وفي حدود السنة السادسة نستطيع ملاحظة بعض المظاهر البراغماتية للغة التي تشكلت لديه، وذلك من خلال انسجامه مع الجماعة داخل الأسرة وفي الشارع والمدرسة.

تتشكل اللغة لدى الطفل مرحلة مرحلة كما سوف نرى ذلك في المحور المقبل، ويبدأ هذا التشكل بالأصوات منذ الصرخة الأولى لديه إلى مرحة اللغة الحقيقية، ويبقى الصوت مادة لا قيمة لها إلا إذا وظفت في الكلمة، وهنا قد يكتسب الصوت قيمة يضيفها عليه المتكلم بما يوظفه فيه، وقد أشرنا في دراسة سابقة إلى أن الكلام يتالف من نسيج من الأصوات، ويتشكل هذا النسيج، بداية بالأصوات، فالمقاطع، ثم الكلمات، لينتهي إلى الملفوظات، فإذا كان الفونيم (phoneme) يمثل أصغر وحدة أساسية في الدراسة الصوتية الحديثة لأية لغة بشرية يعين بها معنى الكلمة، كما يفرق بين كلمة وأخرى ويعني صوت لغوي، مثل: /ب/ت/ث/ج إلخ، فإن المقطع أشمل من الفونيم،[1] ولايمكن الحديث عن الملفوظات دون الوقوف على الكلمات المكونة لها. ومن نافلة القول أنه لا توجد دلالة ثابتة لكل مقطع؛ لأن دلالة المقطع تتشكل وفق تضافره مع المقاطع الأخرى، وبذلك فإن الأصوات، والتشكل الصوتي يضفي على جوانب التشكل

اللغوي بعض الترابط والانسجام. يقول محمد صالح الضالع: "ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون للأصوات المفردة معان بذاتها، ولكنها تكتسب تلك المعاني من وجودها في السياق الذي يصبغها بلونه، بالإضافة إلى لونها وطبيعتها النطقية والسمعية"[2].

وعموما فإن معظم اللسانيين أكدوا أن الفرد يولد مزودا بملكة لغوية، وبقدرة فطرية تمكنه من تشكل اللغة لديه، وهذه خاصية ينفرد بها الكائن البشري دون غيره من الكائنات الأخرى، وقد بين ذلك الدكتور الفاسي الفهري بقوله: "إذا قارنا حالة الإنسان بنتائج التجارب التي أجريت على القردة، فإن القرد يمكن أن يتكلم 200 كلمة (قد تصل بعد عدة سنوات من التعلم إلى 400)، بينما يستطيع الطفل في ظرف وجيز جدا أن يكتسب آلاف الكلمات"[3]. وهكذا فإن الفرد قادر على أن يشكل لغته ارتباطا بعاداته النطقية ووفق مراحل معينة.

2- مراحل التشكل اللغوي والعوامل المؤثرة فيه

تفصح مختلف التغيرات الجسدية التي تظهر في حياة كل فرد عن وجود مراحل عدة يمر منها منذ ولادته حتى وفاته، وتؤكد هذه العملية أن الفرد في حالة نمو ينبعث من الداخل، يقول أحمد زكي صالح: "إن الإنسان كأي كائن حي آخر ينمو نموا داخليا كليا، وهذا النمو يحدث باستمرار في سن حياته المتتابعة، حتى يقف عند مرحلة معينة يأخذ عنها الإنسان تكوينه النهائي، ولذلك فإن عملية تقسيم هذه الفترة إلى مراحل معينة ليست سهله، بل إنها مهمة عسيرة، ولذلك نتوقع أن يختلف علماء النفس في تقسيمهم فترة النمو إلى مراحل، وبما أن التقسيم غير خاضع لمقياس خارجي معين، فإننا لا نستطيع أن نقطع بأي تقسيم هو الأدق ولكن في مثل هذه الحالات يجب أن نتخذ من محك المنفعة مقياسا وبالتالي يكون أنفع التقسيمات المختلفة التقسيم التالي..."[4]

- المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الميلاد
- المرحلة الثانية: سن المهد
- المرحلة الثالثة: الطفولة المبكرة
- المرحلة الرابعة: الطفولة الوسطى
- المرحلة الخامسة: الطفولة المتأخرة
- المرحلة السادسة: المراهقة
- المرحلة السابعة: الرشد

من خلال ما أشار إليه أحمد زكي يتضح أن الفرد يعرف نموا عاما عبر مراحل، ولكن هذا النمو يتبعه نمو لغوي أو ما يعرف بظاهرة التشكل اللغوي، والتي لابد للفرد أن يمر بمراحل للوصول إليها.

2- 1 مراحل التشكل اللغوي

إن اللغة تعتمد في عملية تشكلها على مدى اكتمال الأجهزة الصوتية ونضجها وتدريبها، بحيث ينعكس ذلك على سرعة الطفل المعرفية أو بطئها، ويجب على اللغة كما قال فؤاد البهى السيد: "أن ترتكز على مستوى التوافق العقلي الحركي الحسي الذي تقوم عليه المهارة اللغوية وخاصة في بدئ تكوينها"[5]، ويمكن أن نشير إلى أهم هذه المراحل التي من خلالها يتم تشكل اللغة كالآتي:

2- 1-1 المرحلة الصرخية

لاشك أن الصراخ يعتبر المرحلة الأساسية والأولية التي يمر منها الطفل، وعبر هذه المرحلة تؤدى وظيفة اللغة في أبسط صورها، أي الاتصال بالآخرين وطلب العون منهم لإشباع الحاجات وهذا ما أكده أنسي محمد أحمد قاسم في قوله: "يمكننا أن ندرك أن الصرخة قد تكون أشبه في البداية بفعل منعكس، المثير فيه هو اندفاع الهواء إلى الرئتين والاستجابة هي تلك الأصوات التي يصدرها الوليد، ثم يتحول صراخ الطفل بعد مدة قصيرة من عملية لا إرادية إلى عملية إرادية هدفها التعبير عن حالة الطفل"[6].

ومن ثمة فكثير من الأمهات بخبرتهن يستطعن التمييز بين صرخات أطفالهن المختلفة، وبالتالي إدراك معنى كل صرخة على حدة، مثلا صرخة الجوع وصرخة الخوف إلى غير ذلك، ونجد في مصنف اللغة والطفل تحليلا لهذه المرحلة إذ يقول صالح الشماع "يُعَبر الصراخ في أول الأمر عن عدم الارتياح في حين يكون الصمت دليل حالة اللامبالاة، ولكن بعد حين يتميز الصراخ وتتفاضل صوره، أو بالأصح تبرز منه أصوات جديدة تمثل الارتياح في صورة قرقرات لطيفة، أما الصراخ البحت فيظل معبرا عن صور شتى من الانزعاج وعدم الارتياح"[7].

وما يمكن استنتاجه من هذا كله أن الصرخات تتضمن مجموعة من الأصوات يخرجها الطفل ويمكن أن تسمح له تدريجيا بأن يصغي إلى نطقه، وتساهم نوعا ما في تشكله اللغوي، وقد ذهب علي عبد الواحد وافي إلى أنه في هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات إلا الأنواع الثلاثة الأولى الوجدانية، والإرادية، وأصوات الإشارة السمعية، أما تعبيرات الطفل في هذه المرحلة فتنتظم جميع أنواع التعبير لديه"[8].

2- 1-2 مرحلة المناغاة

من المتفق عليه في الدراسات الأخيرة أن المناغاة تعني اللعب العشوائي الذي لا يهدف منه الطفل إلى الاتصال بالغير، كما

يتضح في صور النطق فيما بعد يقول صالح الشماع: "والمناغاة بما تستغرقه من وقت يتراوح بين بضعة شهور قليلة وبين عام أو أكثر من عام، وبما أنها توجد في جميع الحالات حتى لدى الصم والبكم والبلداء يمكن القول إنها مظهر يخلف الصراخ"[9]. ونؤكد كذلك من جهتنا أن المناغاة لا تخرج عن كونها مجموعة من الأصوات التي يخرجها الطفل وهو في حالة ارتياح وشبع أو خوف وجوع، يرى علي عبد الواحد وافي في كتابه علم اللغة "أن هذه المرحلة تمتاز عن المرحلة الصرخية من الناحية الصوتية بظهور نوع جديد من الأصوات وهي أصوات التمرينات النطقية أو اللعب اللفظي"[10].

3-1-2 مرحلة التقليد

نجد الطفل في هذه المرحلة يحاول أن يقلد كل ما يسمعه وكل الحركات التي تدور حوله وخصوصا من أبويه، ذلك بهدف الاتصال بهم، أو لكي يصبح مثلهم، أو من أجل اللعب واللهو، يقول أنسي محمد أحمد قاسم في هذا الصدد "...والتقليد ذو أهمية بدليل كل طفل يتعلم اللغة التي يسمعها من المحيطين به، أي اللغة القومية له أو لغة الأم، هذا ولا تخفى أهمية التقليد لكل جوانب سلوك الطفل المختلفة"[11]، إن التقليد اللغوي، أو كما يسميه البعض بالمحاكاة اللغوية، له دور كبير في كشف قدرات الأطفال ومدى استعدادهم واستجابتهم للمحيط الذي يعيشون فيه، لأنه في هذه المرحلة يستجيب الطفل للأصوات البشرية المحيطة به فيما بين الشهر الثاني والشهر الثامن من بدء ميلاده، فيعبر عن سروره أو رضاه، ثم يتطور به الأمر فيقلد الأصوات التي يسمعها؛ مما يضطره إلى إجادة الاستماع، والإصغاء، والانتباه إلى كل صوت يسمعه، ويذهب علي عبد الواحد وافي إلى أن "هذه المرحلة تبدأ في السنة الأولى عند العاديين من الأطفال من الناحية اللغوية، وقد لا تبدأ لديهم إلا في أواخر الثانية أو الثالثة، وتتأخر تبعا لذلك مواعد انتهائها، وعند بعض الحالات الشاذة لا تبدأ إلا في سن متأخرة جدا"[12]، نستنتج من هذا أن التقليد هو المرحلة الحاسمة التي تميز الأطفال العاديين عن غيرهم، وبالتالي فتشكل اللغة يعرف سيرورته انطلاقا من هذه المرحلة.

4-1-2 مرحلة الإيماءات

لعل للتقليد دور أساسي في تكرار الطفل لبعض الكلمات التي يسمعها وبالتالي يبدأ الأطفال في استخدام الإيماءات والإشارات التي تزكي عملية النطق، وما نلاحظه علميا أن الإيماءات تكثر خاصة عند الأطفال الذين لديهم عجز في تقليد اللغة والتكلم بها ويرى إكريد ولوجودوين (1988) أن هناك علاقة قوية بين نمو الإيماءات والقدرات اللفظية لأن كل منهما تظهر في نفس الوقت عند النمو ويستخدمان معاني الاتصال[13].

بعد جردنا لأهم مراحل التشكل اللغوي لدى الفرد، يتضح لنا أنها كلها مجتمعة تساهم في بناء وتشكل اللغة لديه، كما أنه قد تتدخل بعض العوامل تؤثر في هذا التشكل اللغوي نشير إليها في المحور الآتي.

2- 2 العوامل المؤثرة في التشكل اللغوي

إن التعرف والفهم للعلاقة القائمة بين التشكل اللغوي والعوامل التي تؤثر فيه، يفيدنا في معرفة الأسباب الكامنة وراء اختلاف التشكل اللغوي بين الأفراد، ويساعدنا في التعرف على أهم الاضطرابات النفسية في النطق والكلام، ومن تم يمكن تقسيم العوامل المؤثرة في التشكل اللغوي إلى مجموعتين حسب ما ذكره أنسي محمد أحمد قاسم.

- عوامل ذاتية نذكر منها:

1-2-2 النضج والعمر الزمني

يعتبر كل من النضج والعمر الزمني من أبرز العوامل الذاتية التي يجب أن تكون متوفرة لدى الطفل، بحيث إن الطفل لا يستطيع تعلم الاستجابات اللغوية إلا بعد أن يصل من الكبر والنضج إلى حد كاف، يسمح له بتعلمها يقول أنسي قاسم "النضج هو الذي يحدد معدل التقدم كما يزداد المحصول اللفظي للطفل كلما تقدم في السن، ويكون فهمه دقيقا، وتتحدد معاني الكلمات في ذهنه، ويعود الارتباط بين العمر والنضج لدى الطفل إلى نضج الجهاز الكلامي والنضج العقلي"[14]، ويمكن تلخيص المؤشرات المستنتجة من العديد من الدراسات التي أثبتها عدد من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر "سايلر" وادليل"، على الشكل التالي:

- ازدياد عدد الكلمات التي يستخدمها الأطفال بازدياد العمر.
- بطئ وضحالة المخزون اللفظي لدى الطفل في السنتين الأولى والثانية.
- كلما ازداد عمر نمو الطفل يزداد طول الجملة لديه.

2-2-2 الذكاء والتشكل اللغوي

مهما اختلفت تعريفات الذكاء، فإن المتفق عليه بين علماء النفس ومختلف النظريات، أن مفهوم الذكاء يرتبط بطريقة أو بأخرى بالقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعامل مع الأشياء ببساطة، والملاحظ أن الأطفال الذين يجيدون حل مشكلاتهم ويتناولون الأشياء ببساطة هم الذين لديهم قدرات لغوية عالية، وقد ورد في كتاب اللغة والتواصل لدى الطفل أن هناك قدرتان

تختصان باللغة، إحداهما الفهم اللغوي، والثانية هي الطلاقة الكلامية.

ومن ثم نستنتج أن هناك علاقة بين اللغة والذكاء، فالأطفال المتفوقون عقليا يبدؤون الكلام قبل غيرهم، كما أن الأشخاص المعتوهين الذين يكشفون على أدنى مستوى عقلي على اختبارات الذكاء، لا يتمكنون على الإطلاق من الكلام.

2-2- 3 الصحة العامة

إن الحالة الصحية للطفل لها دور كبير في التأثير على عمليات نموه المختلفة، بحيث كلما كان الطفل سليما من الناحية الجسمية كان أكثر نشاطا، ومن تم يكون أكثر قدرة على تشكيل اللغة واكتسابها يقول أحمد قاسم: "...كلما كان الطفل يعاني من تأخير في النمو الحركي إلا ونتج عنه قلة اللعب بالأصوات في المرحلة الخاصة به... وبالتالي هناك علاقة إيجابية كبيرة بين نشاط الطفل والنمو الكلامي"[15].

- عوامل بيئية نذكر منها:

2-2-4 دور القائمين على رعاية الطفل في تشكل اللغة المبكرة

إن اللغة لا تنمو في فراغ بمعزل عن العالم الخارجي، فالطفل يواجه عملية الاكتساب بحافز بيولوجي قوي لينمي اللغة، كما أن بزوغ اللغة يرتبط تماما بالنمو المعرفي، بحيث إن الطفل لن يكتسب اللغة اذا لم يتعرض لنماذج لغوية في حين أن السماع البسيط غير كاف لاكتساب اللغة، فلابد للطفل أن يحتك مع القائمين على رعايته مما يسهل عليه اكتساب الحصيلة اللغوية والتشكل اللغوي ككل، وحسب ما ورد في كتاب اللغة والطفل "فإن القائمين على الطفل يقومون بأكثر من توسيع تلفظاته، وذلك لأنهم يوفرون له معلومات متعلقة بالمعنى أيضا"[16].

2-2-5 المحيط والرعاية الأسريان

يمكن إجمال هذه النقطة بالذات في أن معظم الباحثين يذهبون إلى القول بأنه "لكي ينمو الكلام ويتطور، فلا بد أن يتلقى الطفل إيصال فيزيقي وانفعالي يتسم بالانسجام والحيوية".

من هنا فمعظم الأسباب التي تكمن وراء تعلم الأطفال اللغة هي اجتماعية في الأساس، ولا بأس أن نذكر بعض النقط التي تندرج ضمن المحيط الذي نشأ فيه الطفل، وداخل الأسرة التي تربى فيها:

- مستوى الأسرة التعليمي والاجتماعي، مشاهدته التلفزيون.
- عدد أطفال الأسرة والترتيب الميلادي للطفل.
- تعدد لغات مجتمعه بالإضافة إلى التحاقه بالروض أم لا.

انطلاقا من كل ما سبق ذكره من مراحل التشكل اللغوي والعوامل المؤثرة فيه لدى الفرد، يمكن القول أن كل ذلك يهيئ الطفل للدخول في المرحلة اللغوية، ويعني لديه الاستعداد ليصل إلى المرحلة النهائية، وهي مرحلة اللغة الحقيقية، ورغم هذا كله فكثيرا ما يتعرض الفرد لبعض الاضطرابات في النطق والكلام ترجع إلى مجموعة من الأسباب، وينتج عنها فروقا فردية في اللغة، ونشير إلى البعض منها كالآتي:

- اضطرابات النطق والكلام

نعلم جميعا أن توزيع أية سمة لدى بني البشر لا يتم بمعدل واحد، بل بدرجات متفاوتة، فبعض الأفراد يملكون درجة عالية عن غيرهم في قدرة ما، وآخرون لهم معدل أقل، واللغة لا تقل شأنا عن أية قدرة لدى الأفراد بحيث تعتبر ظاهرة معقدة تستدعي عمل كثير من الأعضاء والعوامل، ومن تم نجد هناك من لديه تأخرا أو اضطرابا في مظاهرها. يقول أحمد قاسم "فالغالبية العظمى من الأفراد يكتسبون الكلام واللغة دون أية صعوبات، غير أنه قد توجد بعض المشكلات سواء أثناء فترة الاكتساب أو في وقت لاحق بعد الاكتساب أو في وقت لاحق بعد اكتساب اللغة والكلام بشكل طبيعي"[17] وتعود معظم هذه الاضطرابات إلى أسباب عضوية واجتماعية ونفسية مع العلم أن العوامل النفسية هي الأهم في جزء كبير من عوائق الكلام.

- الأسباب العضوية

تتم عملية الكلام عبر مجموعة من الأعضاء تمتد من الأحشاء حتى الأنف والأذنين يقول صالح الشماع "فلا يُستبعد إذن أن يكون تلف أي عضو من هذه الأعضاء المنتشرة بين هذين الطرفين المتباعدين سببا في الإخلال بعملية الكلام بشكل أو بأخر كما أن أي خلل عضوي أو وظيفي في الأعصاب يمنع التآزر الحركي، وإصابات المخ تؤخر عملية ارتقاء الكلام"[18].

- الأسباب الاجتماعية والنفسية

إن الأسباب الاجتماعية مشتركة مع الأسباب النفسية إن لم نقل متكاملة فيما بينها، فمثلا ما يروج في ذهن الطفل ما هو إلا نتاج لما لاحظه أو سمعه في بيئته ومحيطه، مع العلم أن للأبوين دور كبير في مساعدة أبنائهم على تجاوز كل الاضطرابات النطقية عدا المتعلقة بالأعضاء، فلو نشأ الطفل في بيئة راقية ثقافيا واقتصاديا وتلقى معاملة وتربية جيدة من أبويه، فإن العيوب ستقل في نطقه وكلامه، عكس الأطفال الذين عاشوا في قلق وتوتر نتيجة شعورهم بالخيبة والحرمان، فيكون نطقهم معرضا لمجموعة من العيوب والاضطرابات.

3 - من المعرفة اللغوية إلى المعرفة غير اللغوية

مما هو معروف أن كل كائن حي يتمتع بنوع من المعرفة، وهذه المعرفة يمكن تصنيفها بطرق مختلفة، ومن هذه الطرق فصل المعرفة اللغوية عن المعرفة غير اللغوية حيث إن معظم النظريات اللغوية الحديثة اختلف بعضها عن بعض في تصورها للغة، باختلاف أهدافها ومنطلقاتها النظريّة والمنهجيّة، وهذا ما يظهر لنا من خلال إلقاء نظرة عن تاريخ علم اللغة الحديث منذ سوسير حتى الآن، حيث خلقت فكرة 'استقلالية النظام اللغوي' أو 'المعرفة اللغوية' نقاشا واختلافا في الرؤية عند كثير من العلماء والباحثين في الدراسات اللغوية، وهو أمر منبثق أساسا من التصور العام الذي تقدمه مختلف هذه النظريات عن اللغة أو المعرفة اللغوية بشكل عام.

يعتبر سوسير رائد الدراسات البنيوية، وأول من أكد على استقلالية النظام اللغوي من خلال فكرته الشهيرة اللغة يجب أن تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها، وكذلك عندما قدم اللغة بأنها نظام قائم له قوانينه الخاصة، وبنيته الذاتية التي يسعى علم اللغة إلى وصفها، وبذلك فقيمة المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية، والتركيبة، والدلالية) تُكْتَسَبُ من خلال علاقتها بباقي المستويات في النظام اللغوي، يقول في هذا الصدد الدكتور حنون مبارك إن سوسير "يجرد اللغة من واقعيتها وماديتها، ويجرد اللغة من الذوات المتكلمة وشروط استعمالها [19]، ونعزز ما ذهب إليه الدكتور حنون مبارك بقول دوسوسير "يجب أن نحصر اهتمامنا في ميدان اللغة فقط وأن نتخذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى[20].

تماشيا مع ما سبق فإن الدراسات البنيوية ركزت على كشف القوانين التي تحكم النظام اللغوي، وهي قوانين داخلية ذاتية تقصي أيّ مؤثر خارجي غير لغوي، ولاشك أن بلومفيلد ومن تبعه من اللغويين من أبرز من حاول التمسك بهذا المبدأ، حتى إنه كان يرى أن دراسة المعنى هي أضعف نقطة في الدراسات اللغوية، لأنه العنصر الذي لا يمكن وصفه ضمن نظام مغلق محكم معتمدا مبادئ النظرية السلوكية في علم النفس التي كان يتبنّاها[21].

وقد ساد القول باستقلالية النظام اللغوي في النظرية التوليدية التحويلية حيث أصبح هدف النظرية اللغوية هو وصف القدرة اللغوية الداخلية التي تمكّن الفرد من فهم وإنتاج ما لا يعد من الجمل الصحيحة التي لم يسمعها من قبل، هذه القدرة اللغوية موجودة في الدماغ البشري، وعليه فإن الدكتور محمد غاليم ذهب إلى القول بأن "النظرية اللغوية نظرية ذهنية بالمعنى التقني لهذه الكلمة، ما دامت ترتبط بالكشف عن واقع ذهني يكمن تحت السلوك الفعلي"[22].

يرى تشومسكي أن اللغة نظام مستقل لكون القدرة اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم تشكل مكونا من مكونات الدماغ المستقلة عن المكونات الأخرى غير اللغوية التي تتحكم في الإدراك والتذكر والمعرفة، وله بنيته المميزة وقوانينه الخاصة التي تهدف النظرية اللغوية إلى الكشف عنها، فالدماغ البشري يشبه الجسم البشري الذي يتكون من مجموعة من الأجهزة تعمل وفق نظامها الخاص، ووظائفها المنوطة بها في تناغم مع بعضها البعض [23].

تعمل النظرية اللغوية المعرفية عند تشومسكي على اكتشاف المبادئ العامة التي تشكل بنية النظام اللغوي الإدراكي الموجود في الدماغ، وهذه المبادئ كما يرى تشومسكي لا يمكن تعميمها، يقول: "ويمكننا حينئذ أن نسأل عما إذا كان من الممكن تعميم هذه المبادئ على حالات أخرى، أو أن نسأل عما إذا كان يمكن لمدخل ما يحقق قدرا من النجاح التفسيري في حالة اللغة الإنسانية أن يفي على الأقل بالغرض ذاته، بوصفه نموذجا موحيا بالنسبة لصور من البحث شبيهة في المجالات الأخرى، ولكن اعتقادي الخاص أن المبادئ لا يمكن تعميمها، أي أنها في نواح حاسمة خاصة بملكة اللغة، وإنْ كان من الممكن أن يكون المدخل موحيا في الحقيقة بالنسبة للأشياء الأخرى[24].

وبذلك فتشومسكي يرى أن النظرية اللغوية تحتاج إلى نوع من الأمثلة وإسقاط العوامل غير اللغوية من عملية الوصف والتحليل للوصول إلى تلك المبادئ المضمنة في الدماغ البشري، وتشكل في مجموعها القدرة اللغوية للفرد، فاللغة – في واقع الاستعمال- غير نقية بمعنى أنها تتداخل مع عناصر من قدرات أخرى موجودة في الدماغ، فالقدرة اللغوية 'Linguistic Competence'، في واقع الاستعمال تتفاعل مع نوعين آخرين: "القدرة البراغماتية" 'Pragmatic Competence' التي تمثل معرفة الشروط الخاصة باستعمال التراكيب بحسب الغايات المختلفة، والقدرة التصورية (Competence Conceptual) التي تتضمن المعرفة الإنسانية بشكلها الواسع والمعتقدات التي يحملها الفرد عن الكون والعالم[25].

وخلافا لما سبق هناك اتجاه آخر لا يقبل أصحابه القول باستقلالية النظام اللغوي، لأنهم يرون أنْ لا انفصال بين المعرفة اللغوية والتفكير بشكل عام[26]، وعليه فهم يعارضون ما ذهب إليه تشومسكي وأتباعه من أن تطور اللغة عند الطفل يأتي كليا من نموذج نحوي مستقل في الدماغ يُنَى بالكامل بتعليمات خاصة به[27].

يرى هؤلاء أن المعرفة اللغوية لا تنفصل عن الإدراك العقلي الذي لا يميز بين المعرفة اللغوية والمعرفة غير اللغوية، والذي له تأثير كبير ببيئة ومحيط الإنسان وتجاربه اليومية المختلفة، فالعمليات العقلية التي تتحكم في التفكير الإنساني، وفي تكوين المعرفة بشكل عام هي نفسها التي تتحكم في المعرفة اللغوية، وفي تشكيل البنية اللغوية العامّة بمستوياتها المختلفة، يقول الدكتور محمد غاليم "هناك مستوى واحد تعالج فيه المعرفة اللغوية والمعرفة الأخرى الحركية والبصرية والسمعية غير اللغوية، وللوصول إلى مجموعة من المعلومات لا ينبغي التمييز داخلها بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي[28]، وهو المستوى الذي يطلق عليه مستوى البنية التصورية conceptual structure [29].

خلاصة

نخلص من خلال التعريج الذي قمنا به للمعرفة اللغوية وغير اللغوية إلى أن اللغة ليست مستقلة أو مغلقة على ذاتها، ولا يمكن وصف نظامها الداخلي وصوغ قواعده وقوانينه بمعزل عن البنية المعرفية، التي تؤسس لمبادئ عامة في الخبرة البشرية تؤثر مباشرة في بنية المبادئ اللغوية المختلفة، كما تستلزم المعرفة ذاتها وسيطا تجري فيه وتتكون، وليس ذلك الوسيط إلا اللغة، يقول ابن رشيق في العمدة إن "كل معرفة للعالم تكون اللغة وسيطا لها"[30]، وهذه الوساطة اللغوية التي يجري عبرها الفعل المعرفي ليست محايدة بل هي فاعلة تكمن في قدرتها على توجيه أسلوب الفعل المعرفي.

ومن هنا، فللغة شروطها المعرفية الخاصة بها لأجل تشكيل صورة العالم أو لأجل نمذجته وإمراره من خلال زاويتها، على أن تلك الشروط تبدأ بلغة التداول اليومي، وتنتهي بالنصوص الأكبر والأكثر تأثيرا في خارطة تلك اللغة، ومن ثمّ، صارت اللغة عاملاً مهماً من عوامل نمو الشخصية الفردية، وتشكلها المعرفي عبر مراحل عمرية تساهم كلها في نضج التشكل اللغوي لدى الفرد واكتماله، بالرغم من العراقيل والاضطرابات التي تعترض سبيله، ونؤكد في الأخير على أن هذه السيرورة التي يمر منها التشكل اللغوي فهي سيرورة يرتبط جزؤها الأول ببنية الهندسة الداخلية للدماغ البشري، ويرتبط جزؤها الثاني بالعوامل الخارجية السوسيولوجية والسيكولوجية وغيرها، ويعمل التفاعل بين هذه المسارات الداخلية والخارجية على امتلاك ناصية اللغة وتشكلها.

هوامش البحث

1. زين العابدين سليمان، تنغيم الجملة في اللغة العربية دراسة أكوستيكية، ص 45.
2. محمد صالح الضالع، الأسلوبية الصوتية، ص 30.
3. الفاسي الفهري، إنشاء قاعدة معجمية عربية مولدة، ص: 4.
4. أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، ص 64
5. فؤاد البهى السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، ص 197.
6. أنسي محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل ص 111.
7. صالح الشماع، اللغة والطفل، ص 55.
8. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص 80-81.
9. صالح الشماع، اللغة والطفل، ص 91.
10. نفسه ص 67.
11. أنسي محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل، ص 123
12. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص 128.
13. نقلا عن أنسي محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل، ص 130
14. نفسه، ص 156.
15. نفسه، ص 136.
16. حلمي خليل، اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، ص 56
17. أنسي محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل ص 197.
18. صالح الشماع، اللغة والطفل، ص 157.
19. حنون مبارك ، *مدخل للسانيات سوسير*، ص28.
20. فرديناند دي سوسير ، *دروس في الألسنية العام*، ترجمة: صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، ص 29.
21. انظر: Leonard Bloomfield1, *Language*, P139-157
22. محمد غاليم، تأصيل البحث الدلالي العربي، ص 61.
23. (بتصرف) John R. Taylor, *Linguistics Categorization : Prototypes in Linguistic Theory*
24. نوم تشومكي، *المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامه*، ترجمة وتعليق: د.محمد فتيح، ص 44-45.
25. (بتصرف) John R. Taylor *Linguistics Categorization* P17
26. (بتصرف) *John I. Saeed, Semantics, P 299*
27. Mark Turner, *The Literary Mind* ,(Oxford, Oxford University Press, 1996), p 14
28. محمد غاليم، تأصيل البحث الدلالي العربي، ص66.
29. انظر في هذا: Ray Jackendoff, *Semantics and Cognition*, p. 16-22.
30. انظر في هذا: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص239.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن رشيق، العمدة، ج1
- أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، ط 7 مكتبة النهضة المصرية، 1961.
- أنسي محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل، مركز الإسكندرية للكتاب، 2002.
- حلمي خليل، اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، دار النهضة العربية.

- حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، ط1، الدار البيضاء دار توبقال للنشر، 1987.

- زين العابدين سليمان، تنغيم الجملة في اللغة العربية دراسة أكوستيكية، ط1، عالم الكتب الحديث الأردن، 2017.

- صالح الشماع، اللغة والطفل، دار المعارف بمصر، 1955.

- صبري إبراهيم السيد، تشومسكي فكرة اللغوي وآراء النقاد فيه، دار المعرفة الجامعية، 1989.

- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط 7 دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة.

- الفاسي الفهري، إنشاء قاعدة معجمية عربية مولدة، مقال منشور في كتاب المعجم العربي المولد معهد الدراسات والأبحاث للتعريب الرباط، 2002.

- فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، طرابس ليبيا 1985.

- فؤاد البهى السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، ط 2 دار الفكر العربي، 1968.

- محمد صالح الضالع، الأسلوبية الصوتية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، ط1 2002.

- محمد غاليم، تأصيل البحث الدلالي العربي، رسالة دكتوراه، (جامعة الحسن الثاني المحمدية، شعبة اللغة العربية وآدابها – لسانيات، 1997.

- نوام تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة وتعليق وتقديم محمد فتيح، ط 1 دار الفكر العربي، 1999.

- John R. Taylor, Linguistics Categorization: Prototypes in Linguistic Theory, Oxford, Oxford University Press, 1995

- Leonard Bloomfield1, Language Winston Holt, Rinehart, New york, 1963

- Mark Turner, The Literary Mind, Oxford, Oxford University Press, 1996.

- Ray Jackendoff, Semantics and Cognition, The MIT Press, Cambridge, Mass. 1985 .